فصل
فى ملوك كندة

أول ملوك كندة حجر بن عمرو الملقب بأكل المرار وهو بن ولد كندة بن ثور بن عفير بن الحرث من ولد زيد بن كهلان بن سبا وكان بنو كندة قبل أن يملك عليهم حِجرٌ هملًا لا يملك عليهم أحدٌ فهلك القوى العيف فلما ملك حجرٌ سدَّد أمورهم وأحسن سياستهم وانتصف للمظلوم من الظالم وكان ابتداء ملكه سنة أربعماية ستين للمسيح قيل إنه لُقِب آكل المرار لأنه كان قد بلغته خيانةٌ من زوجته فاستشاط غضبًا وجل كأمل المرار وهو نبات مرَّ الطعم فقيل له ذلك وكان ملك حجر عشرين سنة ولما توفى ملك بعده ابنه عمرو بن حجر وكان يلقب بالمقصور لأنه قصِر على ملك أبيهِ فلم يتجاوزه فأقام فى الملك ما شاءَ الله حتى قتله الحرث بن أبى شمر الغسانى فملك بعده ابنه الحرث بن عمرو وكان شديد الباس كثير الغزوات ولما ملك قباذ كسرى بن فيروز خرج فى أيامهِ مردك يدعو إلى الزندقة فأجاب كسرى دعوته وكان المنذر بن ماء السماءِ عاملًا لكسرى على الحيرة فدعاه إلى الدخول معه فى مذهب مردك فأَبى فدعا الحرث بن عمرو فأابه فسدَّد ملكه وطرد المنذر عن مملكتهِ وملكه مكان المنذر كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الكلام على ملوك العراق وعظم شأن الحرث بعد ذلك وأقام على مكلتهِ عزيزًا حتى ملك أنوشروان كسرى فقبض على مردك وصلبه فى جذع وأمر بقتل الزنادقة فقُتِل منهم فى ضحوةٍ واحدةٍ ماية ألف زنديق فى أمكنةٍ شَتَّى من بلادهِ وطلب الحرث بن عمرو يريد أن يقتله أيضًا وكان الحرث بالأنبار فلما بلغهُ ذلك خرج هاربًا فى أصحابهِ ومالهِ وأولادهِ وكان كسرى قد أعاد المنذر إلى ملك الحيرة فخرج فى طلب الحرث

بالخيل من تغلب وبهراءَ وإياد حتى أدركه بأرض بنى كلب ولم يتمكن منه فنجا وانتهبوا ماله وظعاينه وأخذت تغلب ثمانية وأربعين فنرًا من بنى آكل المرار وقدمت بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأملاك فى ديار بنى مربن بين دير هند والكوفة وكان فيهم اثنان من أولاد الحرث المذكور وفى ذلك يقول حفيده امرءُ القيس:

ملوكٌ من بنى حجر بن عمرٍو ... يساقون العشيةُ يقتلونا
فلو فى يوم معركة أُصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينا
ولم تُغسَل جماجمهم بغسلٍ ... ولكن فى الدماء مُزَمَّلينا
تظلّ الطير عاكفةً عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا

وصار الحرث إلى مسحلان فقتله بنو كلب وقيل إنه مكث عندهم حتى مات وكان الحرث قد ملك أولادهُ فى قبائل العرب فملك ابنه حجرًا على بنى أسد وغطَفان وملك ابنهُ شرحبيل الذى قُتِل يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنهُ معدى كرب وكان يلقب غلفاءَ لأنه كان يغلف رأسهُ بالطيب على بنى تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف بنى دارم بن حنظلة والصقايع وهم بنو رقية وملك ابنه عبد الله على بنى عبد القيس وملك ابنه سلمة على بنى قيس وكان حجر بن الحرث بعد أبيه فى بنى أسد وقد أساءَ معاملة القوم وكان له عليهم أتاوةٌ فى كل سنة فأقصروا عنها وهربوا فبعث إليهم جائيهُ الذى كان يخدمهُ فامتنعوا عليهِ وضربوهُ وأهانوا أصحابهُ وكان حجر يومئذ بتهامة وهى خة متسعَة بين الحجاز وأطراف اليمن فلما بلغهُ ذلك سار إليهم بجالٍ من ربيعة وجُندٍ من رجال أخيهِ فظفر بهم وأخذ سُرّاتهم وجعل يقتلهم بالعصى فقيل لهم عبيد العصا واستباح أموالهم وسيَّرهم إلى تهامة وأقسم لا يساكنونهُ أبدًا فى بلدٍ وحبس منهم عمرو بن مسعود بن كلدة بن فزارة الأسدى وكان سيد قومِه وعُبيد بن الأبرص الشاعر فقام عبيد بن الأبرص وقال أيها الملك اسمع مقاتلى وأنشد يقول *

يا عين ما فابكى بني ... أسد فهم أهل الندامه
أهل القباب الحمر وال ... نَعم المؤثل والمدامه

وذوى الجيـــاد الجـــرد وال ... اســـل المثقفـــة المقامـــة
حلًـــا أبيـــت اللعـــن حلًـــا ... إن فـــى مـــا قلـــت آمـــه
فـــى كـــل وادٍ بـــين يثـــر ... بَ فالقـــصور إلى اليمامـــه
تطريـــبُ عـــان أو صـــيا ... حُ محـــرَّقٍ أو صـــوت هامـــه
ومنعـــتهم نجـــدًا فقـــد ... حلـــوا علـــى وَجَـــلٍ تهامـــه
بَرِمَـــت بنـــو أســـدٍ كمـــا ... برمـــت ببيـــضتها النعامـــه
جَعلـــت لهـــا عـــودَين مـــن ... نَـــشَمٍ وآخـــرَ مـــن ثمامـــه
مهمـــا تركـــت تركـــت عفـــوًا ... أن قتـــات فـــلا ملامـــه
أنـــت المليـــك علـــيهمِ ... وهـــم العبيـــد إلى القيامـــه
ذلُّـــوا لـــسطوتكم كمـــا ... ذلَّ الأشـــيقر ذو الخزانـــه

فرقَّ لهم حجر حين سمع قوله وأطلقهم وأما بنو أسد فلما رأوا ما كان منه تآمروا وقالوا والله إن قهركم هذا ليحكمنَّ عليكم حكم الصبى فما خير عيشٍ يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشد العرب فموتوا كرامًا ثم ساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فى بنى كندة فالتوقوا بهِ واقتتلوا قتالًا شديدًا وكانت المعركة بين أبرقين من بلادهم يدعيان إلى اليوم أبرقى حجرٍ وكان صاحب أمر الأسديين علباءُ بن الحرث الكاهلى فحمل على حجر وطعنهُ بالرمح فى شاكتلِه فخرَّ قتيلًا وقيل إن قاتلهُ كان ابن أخت علياءَ وكان حجر قد قتل أباه ولما قتل حجر انهزمت بنو كندة وفيهم امرءُ القيس بن حجر فهرب على فرس له أشقر فلم يدركوه وأسروا من أهل بيتهِ رجالًا واغتنموا مالًا كثيرًا وسبوا جوارى حجر ونساءَهُ وفى ذلك يقول امرءُ القيس *

يـا لهـف هنـدٍ أن نلاقـى كـاهلا ... القـــاتلين الملـــك الحُلاحِـــلا
تـــالله لا يـــذهب شـــيخى بـــاطلا ... يـــا خـــير شـــيخ حـــسبًا ونـــائلا
وخيرهـــم ق علمـــوا فواضـــلا ... يحملنـــا والأســـل النـــواهلا
وحـــى صـــعبٍ والرشـــيح الـــذابلا ... مـــستثغراتٍ بالحـــصى جـــوافلا

وقيل أن امرء القيس لما قُتِل أبوه كان بأرض اليمن فى مكانٍ يقال له دمون وكان قد خرج مغاضبًا أباه فلما أتاه الخبر بقتلهِ أنشد يقول *

تطـــاول الليـــل علـــىَّ دمـــونِ دمـــون أنـــا معـــشرٌ يمـــانون
وإننـــــا لأهلنـــــا محبـــــون

ثم قال ضيعنى صغيرًا وحمَّلنى دمه كبيرًا والله لا أشرب خمرًا ولا أصيب امرأةً ولا أغسل راسى حتى أدرك بثأرى فلما جن الليل رأى برقًا بتلألأ فى جوانب الأفق فقال *

أرقـــت لـــبرقِ بليـــلٍ أهـــل يـــضيءُ ســـناه بـــأعلى الجبـــل
أتـــانى حـــديث وكذَّبتـــهُ بـــأمر تزعـــزعُ منـــهُ القلَـــل
بقتـــل بنـــى أســـدٍ ربهـــم إلا كـــل شـــيءٍ ســـواه جلـــل
فـــأبن ربيعـــة عـــن ربهـــا وابـــن تمـــيمٌ وابـــن الخـــوَل
ألا يحـــضرون لـــدى بابـــه كمـــا يحـــضرون إذا مـــا بـــذَل

ولما رأى امرء القيس ضعف أمرهِ وطاب القوم له لجاءَ إلى ابن عمتهِ عمرو بن المنذر وكانت أمهُ هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار وكان عمرٌو حينئذٍ خليفةً لأبيهِ المنذر ببقَّة وهى بين الأنبار وهيت فأجاره ومكث عنده زمانا ثم بلغ المنذر مكانُه عندهُ فطلبهُ فأنذرهُ عمرٌو فهرب وأخذ يستنصر قبايل العرب فلم ينصروهُ لوما رأى تخاذل العرب عنهُ استجار رجالًا وسار بهم إلى بنى أسد فظفر بهم وانثنى عنهم غانمًا ولجَّ المنذر بطلبهِ فتفرَّق أصحابهُ عنهُ ونجا فى عصبةٍ من بنى آكل المرار حتى نزل بالحرث بن هشام من بنى يربوع بن حنظلة وكان مع امرء القيس خمس دروع وهى الفضفاضة والصافية والمحصنة والخريف وأم الذيول وكانت هذه الدروع لبنى آكل المرار يتوارثونها ملكٌ عن ملكٍ فما لبث عند الحرث إلا قليلًا حتى بعث المنذل إلى الحرث مايةً من أصحابهِ يتوعده بالحرب إن لم يسلَّم إليه بنى آكل المرار فأسلمهم ونجا امرءُ القيس ومعهُ يزيد بن معوية وبنته هند بنت امرء القيس

والدروع والسلاح وما كان قد بقى معهُ من المال وخرج على وجههِ حتى وقع فى أرض طى فنزل برجل من بنى جديلة يقال لهُ المعلّى بن تيم وفى ذلك يقول ❊

كانى إذ نزلتُ على المُعَلّى ... نزلت على البواذخ من شمامِ
فما مَلكُ العراقَ على المعلى ... بمقتدرٍ ولا ملك الشامِ
أصد نشاص ذى القرنين حتى ... تولّى عارض الملك الهمامِ
أقرَّ حشى امرءِ القيس بن حجُرٍ ... بنو تميمٍ مصابيح الظلامِ

ولبث امرءُ القيس عند المعلى واتخذ إبلًا هناك فغدا قومٌ من بنى جديلة يقال لهم بنو زيد وطردوا الإبل وكان لامرءِ القيس رواحل مقيَّدة عند البيوت خوفًا من أن يدهمهُ أمرٌ فيسبق عليها فخرج بها ونزل ببنى نبهان من طى فخرج نفر منهم وركبوا تلك الرواحل يطلبون له الإبل فأخذتها جديلة أيضًا فرجعوا إليه بلا شيءٍ فقال فى ذلك ❊

عجبت له يُمشى الخُزُقَّة خالدٌ ... كمشى أتاهنٍ خُلّيت عن مناهلِ
فجع عنك نهبا صيح فى حجراتهِ ... ولكن حديثًا ما حديث الرواحل
كأنَّ دثارًا حلّقت بلبونهِ ... عقابُ تتوقى لا عقاب القواعل
أَبت أجاءٌ أن تسلم العامَ جارها ... فمن شاءَ فلينهض لها من مقاتل
ببيت لبونى بالقُرَبَّة آمنًا ... واسرحها غِبًّا بأكناف حابل
بنو ثعلٍ جيرانها وحماتها ... وتمنع من رُمَاة سعدٍ ونابل
تلاعب أولاد الوعول رباعها ... دُوَبنَ لسماءِ فى رؤوس المجدل
مكللةَ حمراءَ ذات أسِرَّةٍ ... لها حبكٌ كأنها من وصايلِ

ففرَّقت بنو نبهان على امرء القيس فُرقًا من المعزى يحتلبها فأخذها وقال ❊

إذا ما لم نكن أبلٌ فمعزى ... كأنَّ قرون جُلتها عُصِيٌ
إذا ما قام حالبها أرَنت ... كأنَّ القوم صبَّحهم نعيٌ

فـــتملاءُ بيتنـــا اقطًـــا وسمنًـــا وحـــسبك مـــن غنـــى شـــبعٌ وريُّ

فأقام امرءُ القيس فى بنى نبهان ما شاء الله ثم خرج من عندهم وجعل ينتقل من قبيلةٍ إلى أخرى حتى نزل برجلٍ من بنى فزارة يقال له عمرو بن جابر بن مازن وطلب منه الجوار فقال له الفزارى يا ابن حجر أنى أراك فى خللٍ من قومك وقد كدت بالأمس توؤكَل فى ديار بنى طى وقد علمت أن أهل البادية أهل وبر لا حصون تمنعهم فليس لك إلا السموال بن عادياءَ صاحب حصن تيماءَ فإنه يمنع ضعفك ويحول دون من يطلبك وأنا أوصلك إلى من يقدم بك عليه فأجاب امرءُ القيس إلى ذلك وأوصله عمرٌو إلى رجل من قومه بنى فزارة يقال له الربيع بن ضبيع الفزارى وكان ممن يزور السموال فيكرمهُ بالعطايا فقال الربيع لامرءِ القيس أن السموال يعجبه الشعر فهلم نتناشد أشعارًا فقال امرء القيس حبًّا وكرامة فقال الربيع)

قـــل للـــسموال أى حـــين نلتقـــي بفنـــاءِ بيتـــك فـــى الحـــضض المزلـــقَ

وهى طويلةٌ يقول فيها *

ولقـد أتيـت بنـى المـضاف مفـاخرًا وإلى الـــسموال زرتـــهُ بـــالأبلقِ
فأتيمـت أفـضل مـن تحمـل حاجـة أن جئتـــهُ فـــى غـــارمٍ أو مرهـــقٍ
عرفـــت لـــه الأقـــوام كـــلَّ فـــضلةٍ وحـــوى المكـــارم ســـابقًا لم يـــسبقِ

فقال امرءُ القيس قصيدته التى يقول فى مطلعها *

طرقتـــك هنـــدٌ بعـــد طـــول تجنـــبٍ وهنـــا ولم تـــكُ قبـــل ذلـــك تطـــرقُ

وهى طويلةٌ لا حاجةٌ إلى استيفايها ثم وفد الفزارى بأمرءُ القيس على السموال فأكرمهم وأنزلهم فى مجلسٍ له وأقام امرء القيس عنده أيامًا ثم طلب إليهِ لأأن يكتب إلى الحرث بن أبى شمر الغسَّانى بالشام أن يوصلهُ إلى قيصر ملك الروم ويشرح له قصتهُ ويستنجدهُ لهُ فكتب له السموال واستودعهُ امرءُ القيس الدروع والمال

والمراءة التى كانت معهُ وترك عندها يزيد بن معوية بن الحرث من بنى عمهِ ومضى حتى انتهى إلى بلاد الروم وكان فى صحبتهِ عمرو بن قمية فأنشد امرءُ القيس يقول:

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا ... وحلت سليمى بطن قوٍّ فعرعرا
كنانيةٌ بانت وفى الصدر ودءها ... مجاورةٌ غسان الحى يعمرا
تذكرتُ أهلى الصاحلين وقد أتت ... على جملى خوض الركاب وأوجرا
فلما بدت حوران فى آلال دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزارا
لقد أنكرتنى بعلبكٌ وأهلها ... ولا بن جريحٍ فى قرى حمص أنكرا

وهى طويلةٌ اقتصرنا منها على هذه الأبيات ولما دخل امرءُ القيس على قيصر شكا إليهِ حالهُ وسألهُ أن يمدهُ بجيشٍ إلى بلاد العرب فلم يجبه فعاد راجعًا حتى انتهى إلى بدةٍ من بلاد الروم يقال لها أنقرة وكان بهِ مرض السلّ فاشتد عليهِ هناك فلبث بها مدة إلى أن أنهكهُ السقم فعلم أنهُ ميتٌ لا محالة وكان قد أخبر بأن امرأة من بنات الملوك ماتت هناك فدفنت فى سفح جبل يقال له عسيب فقال:

أجارتنا أن الخطوب تنوبُ ... وإنى مقيمٌ ما أقام عسيبُ
أجارتنا أنا غريبان ههنا ... وكل غريبٍ للغريب نسيب
فإن تصلينا فالقرابة بيننا ... وإلإن تعجرينا فالغريب غريب

ثم مات فدفن هناك إلى جانب قبر المرأة وكان ذلك سنة تسع وثلثين وخمسماية للمسيح وكان امرءُ القيس نحيف الجسم معتدل القامة صبيح الوجه حسن الأخلاق كريمًا مشهورًا بالفصاحة وكان من فحول الشعراء فى الجاهلية وأحسنهم نظمًا وهو أول من أحكم القوافى على ما قيل وكانت أمهُ فاطمة بنت ربيعة بن الحرث بن زهير أخت كليب والمهلهل التغلبيين وكان يكنى بأبى وهب وقيل بأبى الحرث وكان يقال لهُ الملك الضليل ويقال له أيضًا ذو القروح وإياهُ عنى الفرزدق بقوله:

وهب القصايد لى النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروَل

وكان مولده ببلاد بنى أسد وكان ينزل فى حصن بالبحرين وكان ينازع الشعراء قيل أنهُ نازع التوام اليشكرى فقال إن كنت شاعرًا فأرجز أنصاف ما أقول فقال التوأم قل ما شئت ❊

فقال امرءُ القيس

أَحارِ ترى بُرَيقًا هبَّ وهنًا

فقال التوأم

كنار الفُرس تستعر استعارا

فقال امرء القيس

أَرِقتُ لهُ ونام أبو شريحٍ

فقال التوأم

إذا ما قلت قد هَدَأَ استطارا

فقال امرء القيس

كأَنَّ هزيزهُ بوراءِ غيبٍ

فقال التوأم

عشارٌ وُلَّهٌ لاقت عشارا

فقال امرء القيس

فلما أن دنا لقفا أضاخٍ

فقال التوأم

وَهَت إعجاز رَيقِهِ فحارا

فقال امرء القيس

فلـم يـترك بـذات الـسرّ ظبيًـا

فقـــال التـــوأم

فلــم يــترك بجهلتهــا حمــارا

وأحاديث امرء القيس ومفاوضاتهُ مع الشعراء كثيرةٌ لا حاجة إلى استيفايها بالتفصيل